

## الفصل السادس

### الخطابة والخطباء

١

#### ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبْلُغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتَوَجَّ هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وما لا شك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعواملٌ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَرُّ لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُتَمَصَّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَاداً ، فكان منهم الأزارقة والنجدات والصفورية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحنج لرأيه مستعيناً بدقة مداخلة في حجته .

ومنذ قيام علي بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناء أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوفى علي ، فيدعون للحسن ، ويحيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفى معاوية ، فمكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقتلُ بكربلاء دون غايته . ويتوفى يزيد ابن معاوية ، فتتشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد : وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتمجد له مصعب بن الزبير . فيتقضى عليه قضاء مبرماً . ونمضي إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويشور ، وسرعان ما يُقضى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانين سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقصر على قريش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء السنهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلُّون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي - كما قدمنا - خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من يبنونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد . وندخل في عصر بني أمية ، فتنحول هذه الوفود إلى سيول ، تنقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثين في شؤون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعين له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بَسَتْ شكواها حين يلمُّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهئة والتعزية . وكانوا يُسَمُّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلام إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأَيَّانَ رَكَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كمي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسَمُّون في ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني . وكانوا يستهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم<sup>(١)</sup> ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية<sup>(٢)</sup> . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبئون في الجيوش لتحسيس الجند على القتال ، كما كان ينبت معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عَتَّاب بن وِرْقَاء حين نازل شيبباً الخارجي يقصُّ على جنده محمّساً لهم<sup>(٣)</sup> كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور<sup>(٤)</sup> . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يدهيون نفس المذهب ، ومن كبار قُصَّاصهم صالح بن مسرح الصُّفْرِيّ ،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندي ص

(٢) طبرى ٨٩/٥ .

(٣) وخطط المقرئ (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢

(٤) البيان والتبيين ٢٧٣/٣ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

وفي الطبري طرف من قصصه<sup>(١)</sup> ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جتهم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريح بخراسان<sup>(٢)</sup> .

وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقى العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشب في مسائل العقيدة ، كسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخير في الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجبّرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رقى الخطابة رقىاً بعيداً .

(٢) طبري ٣/٦ وما بعدها .

(١) طبري ٥٠/٥ .

## خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستره لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطبائهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنه سهم أو من ولايتهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم : ولم يدعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولايتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ . وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم (١) .

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها

و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمِيّ والمستورد بن عُلْفَةَ لعهد المغيرة بن شعبه في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مرَّ بنا - إلى أزارقة ونجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بنى أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَةَ وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شر ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لماعند الله من الثواب . وتلقانا في خطبائهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للتراي على الموت تراهي الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه (١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وحيزي » . وتقوا بأنكم المستخلفون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطللة ، وهم المؤمنون حقاً وغيرهم الكافرون . وقتلهم في الجنة أما قتل غيرهم ففي النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجالة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم . على نحو ما يلقانا في خطبة قَطْرِيّ ابن الصُّجاء قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستلها على هذا النمط (٢) :

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ . ٢٥٠/٢ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وبعيون الأخبار

« أما بعد فإنني أهدركم الدنيا فإنها حلوة خَصْرَة<sup>(١)</sup> ، حُفَّتْ بالشهوات... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْرَة<sup>(٢)</sup> ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سرَّائها بطناً ، إلا منحته من صرَّائها ظهراً ، ولم تَطُلَّه غَبِيَّة<sup>(٣)</sup> رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَة<sup>(٤)</sup> بلاء ، وحريُّ إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوب واحلّولى<sup>(٥)</sup> أمر عليه منها جانب وأوبى<sup>(٦)</sup> . وإن آتت امرأة من غضارتها<sup>(٧)</sup> ورفاهتها نِعَمًا أرهقتة من نوائها نِقَمًا ، ولم يُنَسَّ امرؤ منها في جناح أمنٍ إلا أصبح منها على قوادم<sup>(٨)</sup> خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

وتعنى الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطبايق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تميم معانيه . ومن أشهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَة بن هلال اليَشْكُرى وزيد بن جُنْدُب الإيادي وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُّفْرِيَّة عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرِّح الذي كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يحمل على بني أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرَّج على الحجاج . وقتل ، فخلفه شبيب الذي دوخ جيوش الحجاج طويلاً ، ومن قول صالح في بعض مواعظه<sup>(٩)</sup> :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغَّب العبد فيما عند الله وتفرَّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

- |                                                     |                                           |
|-----------------------------------------------------|-------------------------------------------|
| (١) خضرة : ناصرة .                                  | (٥) احلولى : صار حلواً .                  |
| (٢) حبرة : سرور .                                   | (٦) أوبى : من الوباء .                    |
| (٣) الطل : المطر القليل . الغبية : المطرة القليلة . | (٧) الغضارة : النضارة والخصب .            |
| (٤) المهلل : المطر الكثير . المزنه : السحابة .      | (٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر . |
|                                                     | (٩) تاريخ الطبرى ٥ / ٥٠ .                 |

يَجْأُرُ<sup>(١)</sup> إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين : قال الله في كتابه : ( وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ) وإن حُبَّ المؤمنين للسَّبَبِ الذي يُنَالُ به كرامة الله ورحمته : جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرِيَّةِ ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظالمَةِ كما يقول ، حاثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرِيَّةِ بالخطابة الطرمّاح بن حكيم وشُبَيْلُ بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِيّ والضحّاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النّجّادات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة فائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة<sup>(٢)</sup> ، وهو يستهلها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيّلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكهلون<sup>(٣)</sup> في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

(١) يجأُرُ : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

والأغاني ١٠٤/٢٠ . (٣) مكهلون : يريد أن لهم رزافة الكهول .

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفرید ١٤٤/٤

الباطل أرجلهم، أنضاء<sup>(١)</sup> عبادة وأطلاق<sup>(٢)</sup> سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شيق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه. موصول<sup>(٣)</sup> كلالهم<sup>(٤)</sup> بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار. . حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت<sup>(٥)</sup> والرماح قدأُشرعت<sup>(٥)</sup> والسيوف قدانتضيت<sup>(٦)</sup>، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتبية لوعند الله، ومضى الشباب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاء على عنق فرسه، وتحضبت بالدماء محاسن وجهه. فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يود أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قهصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء علي هم أصحاب الخلافة الشرعيين بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتداول هذه الأفكار دائماً في خطابهم وخطابة أئمتهم، على نحو ما نجاء عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاق : مكدودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمي .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبید الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول في كلمة له <sup>(١)</sup> .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَىٰ لله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرین فيكم بالجرور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويقتتل الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بني أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوقّف يزيد بن معاوية فيجتمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبّتهم من السكوت عن الثار للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم في تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت في الخلافة لقرباتهم من الرسول ، مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد في إحدى خطبه <sup>(٢)</sup> :

« قُتِلَ فينا ولدنا وولدُ نبينا وسالته وعصارتة وبتضعة <sup>(٣)</sup> من لحمه ودمه . . اتخذة الفاسقون غرضاً للنسب . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل <sup>(٤)</sup> والأبناء حتى يَرْضَىٰ الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قُتِلَ أو تَبَيروا <sup>(٥)</sup> » .

وكان من زعماء التوابين معه عبید الله بن عبد الله المرّى ، وكان خطيباً لا يبارى . ففضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله <sup>(٦)</sup> :

« هل خلق ربكم في الأولين والآخريين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذرّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترم <sup>(٧)</sup> إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم <sup>(٨)</sup> إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٣٠٣/٤ . (٢) تبيروا : تهلکوا .  
 (٣) طبرى ٤٣٨/٤ . (٤) طبرى ٤٣٣/٤ .  
 (٥) بضمه : قطعة . (٦) اجترم : اقترف وارتكب .  
 (٧) الحلائل : جمع حليلة ، وهي الزوجة . (٨) ترميلهم : من رمه إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وحذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يناصح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد السُّحِلِّين والمارقين » .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكَّل بهم وفرق جمعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية - على الرغم من تبرئه منه - بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى مازدهت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعهده وصيه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً<sup>(١)</sup> وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله . ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السنجع يوشِّبها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup> :

« أما وربَّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه<sup>(٣)</sup> والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلنَّ كلَّ جبَّار ، بكلِّ لَدْنٍ خطَّار<sup>(٤)</sup> ، ومهند بتَّار<sup>(٥)</sup> ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميلٍ أغمار<sup>(٦)</sup> ، ولا بعُزْل<sup>(٧)</sup> أشرار ، حتى إذا أمتُّ عمود الدين ورأبتُ شَعْب<sup>(٨)</sup> صدَّع المسلمين ، وشفيت

(١) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،

(٢) الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٣) المهامه : الفياض .

(٤) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

(٥) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .

(٢) طبرى ٤ / ٤٥٠ .

(٣) المهامه : الفياض .

(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أخفل بالموت إذا أتى . »

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يرددها خطباء الشيعة ، وهي معان تَرَدُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتلهم الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى . وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صَوْحَانَ : صَعَصَعَة وزيد وسَيِّحَانَ وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المحاضرات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي محاضرات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المحاضرات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهماً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحده ذكائه<sup>(١)</sup> ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتِلَ أبوه وعمه وابن عمه<sup>(٣)</sup> ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لانحوت حَتَفَ أَنْوَقْنَا<sup>(٤)</sup> ، ولكن قَعَصْنَا<sup>(٥)</sup> بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة

٢١٣/٣ .

(٤) يقال مات حتف أُنْفَه إذا مات على الفرائش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

(١) طبري ٤/٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/١٢٢ وعيون الأخبار

٢٢٠/٢ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل

وعنه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبدي ملكه ، فإن تُقْبِلَ الدنيا على لم آخذها أخذ الأثير<sup>(١)</sup> البَطْرِ ، وإن تُدْبِرْ عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِقِ المهين<sup>(٢)</sup> . «  
ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة<sup>(٣)</sup> ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة<sup>(٤)</sup> طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من تلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان ميدراً مفوهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن وائلة الكنانى وعبد المؤمن بن شيبث بن ربيع . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يجرّضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء التوار تنناثر خطبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عسّف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالقسىء ، حتى لئرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم<sup>(٥)</sup> .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأثير: البطر .

. ١٣٥/٤

(٢) الخرق: الدهش خوفاً . المهين: الحقير .

(٤) طبرى ٣٠/٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد

(٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال (١) :

رَكوبُ المنايرِ وثأبها مِعْنٌ بخطبته مِجْهَرٌ (٢)  
تَرِيْعٌ إليه هَوادى الكلامِ إِذا ضلَّ خُطْبَتَه المِهْدَرُ (٣)

وخطابته قسمان : قسم "سياسة" خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة (٤) . وهو في القسم الثاني يتنصّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ (٥) ، وقد آثم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كتّاب الوحي وأنه من جِلَّة الصحابة . وتردد في خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه (٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّمت يده على شاكلة قوله في كلمة له (٧) :

« أيها الناس ! إنكم لم تُخَلِّقُوا عَبَثاً ولَنْ تُرَكَّبُوا سُدًى ، وإن لكم معاداً يُحْكَمُ الله نبيّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحُرِّم الجنة التي عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بباقي ، ألا تبرون أنكم في أسلاب المهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولي الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .  
(٢) من : تعن له الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .  
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام : أوائله .  
(٤) العقد الفريد ٤/١٢٧ .  
(٥) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ .  
(٦) العقد الفريد ٤/٨١ .

بديعة<sup>(١)</sup> يصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وقفتي بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بني أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبي سفيان والى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسري ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« إني لأرى رعوساً قد أينعت وحن قِطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء تترقب بين العمامم واللحى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوي الأخلاق ما أغمز تغماز التبين ولا يبق عقمع لي بالشنان<sup>(٣)</sup> ، ولقد فررت<sup>(٤)</sup> عن ذكاء وفتشت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كتب كنانته<sup>(٥)</sup> ثم عجم<sup>(٦)</sup> عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلها عموداً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم<sup>(٧)</sup> في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي . أما والله لألحونكم<sup>(٨)</sup> لحو العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل<sup>(٩)</sup> .. أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شُعلاً في جسده . »

وهو يفتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرت خطبته بأسلوب تصويري قوي ، وهو يعدد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضل زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

(١) البيان والتبيين ١/٢ : ١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار ٢٤٤/٢ .

(٣) القعقة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القرية البالية كانوا يجركونها إذا استحووا

الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه بالاحقية له .

(٤) فررت : اخترت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اخترت .

(٧) أوضع : أسرع في سيره أو ساربه القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند اهرب وعند

الطاع على الخوض إذ تحتلف بغيرها فتضرب وتبع .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُروى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه « يعظُّ عظة الأزارقة ويتبسطش بطش الجبارين »<sup>(١)</sup> ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغنى غياً فأجتنبه ولا تتكلىني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً<sup>(٢)</sup> » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً من يتنقض حبيل الجماعة . وأكثر في خطب أجمع من المواعظ ، حتى سُمي خطيب الله<sup>(٣)</sup> ، ويُروى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال<sup>(٤)</sup> :

« سبحان من الجراد من خلقه ، أدمج قوائمه ، وطوقها جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة واثارين مختلفين حاربوا بني أمية غصباً لدينهم كما دار على السنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرّة : « يا أهل الشام أهدأ القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يعزّوا به تنصر إمامهم<sup>(٥)</sup> » وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتتوكم في دينكم وسفكوا دماءكم<sup>(٦)</sup> » . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبيين من آي الذكر الحكيم ما يشعل حماسهم ،

(١) البيان والتبيين ١٦٤/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١٣٧/٢ والعقد انفرادي .

(٣) ١١٥/٤ .

(٤) البيان والتبيين ٢٧٥/٢ .

(٥) عيون الأخبار ٢٤٧/٢ .

(٦) طبرى ٣٧٥/٤ .

(٦) الكامل لمبرد ص ٦٣٠ .

ويذكرى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتبية بن مسلم الباهلي وقد تمها لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« وَعَدَّ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصْرَ بِحَدِيثِ صَادِقٍ وَكُتَابِ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وَوَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ الثَّوَابِ وَأَعْظَمَ الذُّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا نَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَأَخْبَرَ عَنِ قَتْلِ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَتَّى مُرْزُوقٌ فَقَالَ : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فَتَنْجِزُوا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ . »

واشتهر في خراسان بعد قتبية غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيّار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة<sup>(٢)</sup> ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نمثّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورقى .

### زياد<sup>(٣)</sup> بن أبيه

وُلِدَ فِي عَامِ الْهَجْرَةِ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ لِسُمِّيَّةٍ جَارِيَةٍ فَارِسِيَّةٍ كَانَتْ لِلْحَارِثِ بْنِ كَلْبَةَ الثَّقَفِيِّ الْمَشْهُورِ بِطَبَّةٍ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ زَوْجُهَا ثَقَفِيًّا يُسَمَّى عُبَيْدًا ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ يُسَمَّى فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ زِيَادَ بْنَ عُبَيْدٍ . وَيَذْهَبُ بَعْضُ الرِّوَاةِ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ الْحَارِثِ وَأَنَّ عُبَيْدًا كَانَ عَبْدًا رُومِيًّا ، وَلَمْ يَكُنْ ثَقَفِيًّا ،

٢٥٩/١ والأغانى (طبعة الساسى) ٣/١٦  
وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ وألّفه القزويني  
٤/٥ (راجع الفهرست) ومروج الذهب  
للسعدي (طبعة مصر) ٥٥/٢ والطبرى في  
مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية  
لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبرى ٥ / ٢١٤  
(٢) انظر نفتح الطيب ١١٢/١  
(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه  
طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٧٠ وأسد الغابة  
٢/٢١٥ والمعارف لابن قتبية (طبعة وتنجين)  
ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي

وما نتقدم معه إلى عهد عمر . حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق . وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيعجب بذكائه ولأسننه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفتني . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك (١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر والياً كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلی وولّى علی البصرة ابن عباس جعله على خراجها . وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة . ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشّعث ورأب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة . إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد من نصره ومنّاه ، وخوف قوماً وتوعدهم . وضرب بعضهم ببعض . ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة . وأقامت طائفة . وقتل بعضهم بعضاً ، وصدقت له فارس فلم يلق فيها جماً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان (٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة (٣) » . ولما قُتِل عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شعبه الثقفي ، ذا كراً ما بينهما من الرّحم . وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(٣) طبري ٤/١٠٥ .

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٢) طبري ٤/١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونهم . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساق والخناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعية وقصّته مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعاد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كليمه صوغاً تَهَشُّ له الأسماع وتُصنَعى له القلوب والأفئدة ، وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً<sup>(١)</sup> » . وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواظب الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبترء<sup>(٢)</sup> ، سُميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد<sup>(٣)</sup> ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمثها بعد أن عاث فيها الفساق واللصوص واضطرب حبّيلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ٤/١١٠ .

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٢/٦٢ .

(٣) انظرها في البيان والتبيين ٢/٦٢ وعيون

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء<sup>(١)</sup> والضلالة العسمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتنحاش<sup>(٢)</sup> عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرم<sup>(٣)</sup> الذي لا يزول . أتكونون كمن طرقت<sup>(٤)</sup> عينيه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبّئوا إليه من ترككم الضعيف يُقهرُ ويُؤخذُ ماله وهذه المواخير<sup>(٥)</sup> المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع العروة عن دلاج<sup>(٦)</sup> الليل وغارة النهار؟! قرّبتهم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صُنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماة ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهل خطبته بتجسيم صور الفساد التي انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرع سامعيه بأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضرب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإنى أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى<sup>(٧)</sup> والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : ( انجُ سَعِدَ فقد هلك سَعِيدٌ ) أو تستقيم لي قناتكم . . من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياي ودلاج الليل فأني لأوتى بمدلاج إلا سفكت دمه .. وإياي ودعوى<sup>(٨)</sup> الجاهلية فأني لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول إيلة إيلاء .

(٢) يتنحاش : ينفرد .

(٦) الداج : السير في الليل .

(٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم يا نبيم مثلاً ، إنارة

(٤) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت .

من الشخص لقومه .

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن<sup>(١)</sup> جعلتها دبر<sup>(٢)</sup> أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قيناعاً ولم أهتك له سترأ ، حتى ييدي لي صفحته<sup>(٣)</sup> ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنقوا أموركم وأرعوا<sup>(٤)</sup> على أنفسكم ، فرباً مسومٍ بقدمنا سنسره ، ومسروراً بقدمنا سنسوهه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور مجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سيأخذ بالظنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّ دسيفه لقتل من لا يرعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تبييت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يستقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليمن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بيفسيء<sup>(٥)</sup> الله الذي خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحنة ، وهي الحقد والضعف . (٤) أرعوا : أبقوا وارتقوا .  
 (٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) الفيء هنا : الحراج وغنائم الحروب .  
 (٣) أبى صفحته : جاهر بعداوته .

فما أحببنا، ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيْسِنَّا بما صحتكم لنا .. وادعوا الله بالصالح لأنتكم فإنهم ساستكم المؤدَّبون وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا، ولا تُشْرِبُوا قلوبكم بَغْضَهُمْ، فيشتد ذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم. أسأل الله أن يُعِينَ كلاً على كلِّ. وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله<sup>(١)</sup>، وآيمُ الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صرعى.» .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم ممنوَّضون لحكمهم من قبيلِ ربهم، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية. وهو يلوح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج وبغنائم الحروب وأنها ستنتهزها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَشْراً، ولا يلبث أن يهدد من تحدَّتهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وصرَّب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما. وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلاً دقيقاً، وكل لفظه تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة، فلا توعد ولا تعقيد ولا كلم غريب.

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً، وهو فيه يُبدع، كما يبدع فى خطبه السياسية، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده، وهى تطرد على هذا السياق<sup>(٢)</sup> :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسىءٍ بخذلان الله إياه. ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء. فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيعطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٨٧ .

(١) اذلاله : وجوه .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأخذَ رَكَمَ الله الذي حذَرَ رَكَمَ نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدرُوا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

## ٣

## خطباء المخالف

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يتقدّمون على ملوكهم وأمراءهم ، فيخطبون بين أيديهم مُشْتَنِين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حائنين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونزاهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جنوبها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كى يطمئنون إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمَثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدِقُونَ عليها إغداقاً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تبعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلاماً لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضَيِّقُ عليها من نواله الغنم ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّتَهُ . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنْشِدْ شاعر ولم يُخْطَبْ خطيب (١) ،

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سكتف من منطقته (١) ». ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عيَّاش العبدي ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال : شيء تجيش به صلورنا فتقذفه على ألسنتنا (٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومصقلة بن رَقبَة ورقبة بن مصقلة وكرب بن مصقلة (٣) ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها (٤) ويقابل آل رَقبَة وصُوحان في بني عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات (٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشيب بن شيبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبياء عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله (٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألوى (٧) بي الليل فقُبِضَ البصر وعُفِّي الأثر أقام بدني وسافر أملى ، والنفس تلوم والاجتهاد يعنذر ، وإذ قد بلغتك فقَطَطْنِي (٨) » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضي خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنّ بمحضرتة ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطابتهم حتى يجلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

- |                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| (١) البيان والتبيين ٣٣٩/١ . | (٥) نفس المصدر ٣٥٥/١ .     |
| (٢) البيان والتبيين ٩٦/١ .  | (٦) البيان والتبيين ٧٥/٢ . |
| (٣) نفس المصدر ٩٧/١ .       | (٧) ألوى هنا : استأثر .    |
| (٤) البيان والتبيين ٣٤٨/١ . | (٨) قطنى : يكفئني .        |

البيعة لابنه يزيد<sup>(١)</sup>، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العنزي في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد<sup>(٢)</sup>. ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولي الكوفي، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخلف والناس بمجموعون على بابه يتهيبون القول، فقال<sup>(٣)</sup> :

« يا أمير المؤمنين أجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رزيت عظيمًا، وأعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر له على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومنحت خلافة الله، ففارت جليلا، ووهبت جزيلا . . . »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأين المزوج بالتعزية نصوص متعددة في المناسبات المماثلة. ومن أشهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر، وكان الحجاج كثيرًا ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطبائهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبي حازم<sup>(٤)</sup>، ولم يكثر الوعاظ على باب كثيرهم على باب عمر بن عبد العزيز<sup>(٥)</sup>، منهم خالد بن صفة<sup>(٦)</sup> وابن عبد الأهم<sup>(٧)</sup> ومحمد<sup>(٨)</sup> بن كعب القرظي. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن<sup>(٩)</sup> صفوان في مجالسه، ولما فرّ الكميث من سجن خالد القسري وضاق به الأرض بما رحبت لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة<sup>(١٠)</sup> يستنزل بها عطفه عليه، فرق له وعفا عنه.

- |                                         |                                         |
|-----------------------------------------|-----------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ .             |
| ٢/٢١٠ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمال       | (٧) نفس المصدر ٢/٣٤١ و٣/١٤٣ ،           |
| ٢/٧٣ ، ٣/١٧٧ .                          | ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ .         |
| (٢) البيان والتبيين ١/٤٨ .              | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار |
| (٣) زهر الآداب ١/٤٩ .                   | ٢/٣٤١ .                                 |
| (٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .             | (٩) أغاني (سأسي) ١٥/١١٣ .               |
| (٥) زهر الآداب ١/٧ .                    |                                         |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يقدون على الولاية ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة<sup>(١)</sup> . ومن وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربي وقد تسخَّطه ببعض قوله<sup>(٢)</sup> ، وكان قواده لا يتنَّون يرسلون إليه من يجبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن معَّدان الأشقري ينبئه بقضائه على الأزارقة<sup>(٣)</sup> .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات<sup>(٤)</sup> وفي إصلاح ذات البين<sup>(٥)</sup> . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعفناها ، ورجعنا انتحالها ، ومثلها ما يُروى في بعض كتب الأدب من خصومة أبي الأسود الدؤلي وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

### الأحنف<sup>(٦)</sup> بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر تميم لُقِّب بالأحنف لحنف<sup>(٧)</sup> كان في رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تفتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حنكة وحلم وحزم ومرورة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولائها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلادهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

١٣٥/٢ .

(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ٤٦/١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبري (راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : الاوجاج في الرجل .

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٢) نفس المصدر ١٣٥/٢ .

(٣) الكامل للبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٧٣/٤ وعيون الأخبار ٧٢/٤ والمقد الفريد ١٤٩/٤ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ،

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوت والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت ، فطلب إليه عمر أن يتكلم ، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً ، يقول الجاحظ : « نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتف في بَسْتٍ<sup>(١)</sup> له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تبعق<sup>(٢)</sup> منه ما تبعق ، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء ، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا<sup>(٣)</sup> . ويقولون إنه استبقاه عنده حولاً كاملاً ليبالغ في تصفح حاله . وعاد إلى البصرة وأخذ يتفد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يمسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان ، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والحیوش ، إذ كان النصر دائماً يرافقه .

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أغمدت استجابة لرأيه ، حتى إذا انتصر على دخل هو ومشابعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلس فيها بلاء حسناً هو وقومه . وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبيث عمرو بن العاص ودهائه . وما زال على وولائه لعل إلى أن لبي ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية . وكان معاوية وولائه وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً، ونراه يُصبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يتفد عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه ، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره .

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة ، بعد ولاتها ، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة ، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب . وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدارى ، وأنه كان يجهر برأيه

(٣) البيان والبيان ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤ .

(١) البت : كساء صوف غليظ .

(٢) تبعق المطر : تفجر وانسال .

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال (١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً وهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسلم أمرها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعي ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامه الأحنف في طاعته ، ويقربه مصعب ويصبح من خلائصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فتر غانة بنت أوس بن حجر التميمية وقفت على قبره ، فأبنته قائلة (٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بجر (٣) من مجن (٤) في جنن ، ومدرج في كفن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، وموتت فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منبع الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقربياً ، وفيهم لقربياً ، وإن كنت لسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك مستمعين ، ولرايك لمتبعين » .

ومر بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبسين العرب والعجم

(٤) أجنه: ستره . تريد أنه ستر في الجنن أي

وضع في القبر .

(١) المقدم الفريد ٤/٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٢ .

(٣) أبو بجر : كنية الأحنف .

قاطبة<sup>(١)</sup> . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء ، حتى يروعا منطقها ، لقدرتها على حَوْك الكلام وتوشيتها أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل في هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقها ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدِّ يد العون والمساعدة<sup>(٢)</sup> :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المحول واتصال من الذُّحول<sup>(٣)</sup> ، فالمكثُر فيها قد أطرق<sup>(٤)</sup> ، والمقلِّ قد أملق ، وبلغ منه المخنثق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُسْعش الفقير ، ويَجْبِرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذُّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللَّأواء<sup>(٥)</sup> . وإن السيد من يعم ولا يخلص ومن يدعو الجفلى<sup>(٦)</sup> ، ولا يدعو النَّقْرَى<sup>(٧)</sup> ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتبه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيمضونه في التواء والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصّبح الجميل ، مستعظفاً ، ولكنه الاستعظاف الذي يُبقي فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه لإرسالاً ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورتها كلمته الآنفة ؛ وقد ألقى بها حين ادلج الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزدي بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه<sup>(٨)</sup> :

- |                            |                                     |
|----------------------------|-------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٦٠ . | (٥) الأرواء : الشدة .               |
| (٢) زهر الآداب ١/٤٦ .      | (٦) الدعوة الجفل : الدعوة العامة .  |
| (٣) اللحول : الثارات .     | (٧) الدعوة النقري : الدعوة الخاصة . |
| (٤) أطرق : هزل وضمف .      | (٨) البيان والتبيين ٢/١٣٥ .         |

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم لإخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرِ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، وبيدنا على العدو. والله لأزددُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استشترى<sup>(١)</sup> شتناً نكم، وأبي حسك<sup>(٢)</sup> صدوركم في أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم ». .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً، فأغمدت الأسنه وُحقت الدماء .

وعلى هذا النحو تُثبت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصره .

## ٤

## خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاصُ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعظ والقصاص في كل بلدة إسلامية لا يسنون عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صحفاً كثيرة، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسود بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة<sup>(٣)</sup>، وكان يقابله في الكوفة زيد<sup>(٤)</sup> بن صوحان وفي المدينة عبَّيد بن عُمَيْر<sup>(٥)</sup> وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره . ومن القصاص أيضاً إبراهيم<sup>(٦)</sup> التميمي الكوفي وسعيد بن جبَّير، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر<sup>(٧)</sup>، ومسلم<sup>(٨)</sup> بن جندب قاصّ مسجد المدينة، وذو<sup>(٩)</sup> بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

- |                                          |                                         |
|------------------------------------------|-----------------------------------------|
| (١) استشرى : تفاقم . الشتان : العداوة .  | (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .                 |
| (٢) حسك الصدور : الحقد .                 | (٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .                 |
| (٣) ابن سعد ج ٧ ص ٢٨ .                   | (٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .             |
| (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .                   | (٩) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ . |
| (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين . | والمقد ٣/١٩٨ .                          |
- . ٣٦٧/١

ابن عبد الله الشَّخِير وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة<sup>(١)</sup>، ومنهم وهب<sup>(٢)</sup> بن منبه ويزيد بن أبان الرقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه<sup>(٣)</sup>. « ليتنا لم نُخلِّق، وليتنا إذ خُلِّقنا لم نَعص، وليتنا إذ عَصِينَا لم نَمِت، وليتنا إذ مَتْنَا لم نُبعث، وليتنا إذ بُعِثْنَا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبْنَا لم نَعُدَّ ب، وليتنا إذ عُدْنَا لم نخلد ».

فالقصاص كانوا وعظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، ومن أشهروا ووعظهم عبد<sup>(٤)</sup> الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء<sup>(٥)</sup> ابن حَيَّوة والأوزاعي<sup>(٦)</sup> في الشام وسعيد<sup>(٧)</sup> بن المسيب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانتهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئِلَ ما مالك؟ قال: مالان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس<sup>(٨)</sup>. ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد<sup>(٩)</sup> بن كعب القرظي وعاظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن<sup>(١٠)</sup> شُبْرمة ومورق<sup>(١١)</sup> العجلى وبكر<sup>(١٢)</sup> بن عبد الله المزني والشعبي<sup>(١٣)</sup> وأيوب<sup>(١٤)</sup> السخْتياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهر وستان طرير<sup>(١٥)</sup>. ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك<sup>(١٦)</sup> بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشد فِطام الكبير، وينشد:

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتُ      ومن العناء رياضةُ الهرمِ

- |                                                              |                                                             |
|--------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٤٣/٣، ١٧٠.          | (٢) ٢٨٩/٢.                                                  |
| (٣) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها، ٢٨١/٢، ٣٢٨. | (٤) البيان والتبيين ١/٢٦٢.                                  |
| (٥) عيون الأخبار ٢/٢٩٤.                                      | (٦) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤٠/٣.                |
| (٧) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ١٨٦/٤.                | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وانظر ١٩٨/٢.                      |
| (٩) انظر في صفة الصفوة ٤/٢٢٨.                                | (٩) انظر البيان والتبيين ٣/١٣٩.                             |
| (١٠) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤.                                   | (١٠) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١.                          |
| (١١) البيان والتبيين ٣/١٣٩.                                  | (١١) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣.                |
| (١٢) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤، ٣٤/٢.                        | (١٢) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢.                                 |
| (١٣) انظر البيان والتبيين ٣/١٣٩.                             | (١٣) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ١٧٠/٣ وطرير: محدد. |
| (١٤) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤، ٣٤/٢.                        | (١٤) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ١٩٧/٣.                |

ومنه إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضربُ به المثل في الذكاء وصدق الفِراسة<sup>(١)</sup>، ومنهم خالد بن صفوان وشيب بن شيبه الأهميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما<sup>(٢)</sup> » ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين<sup>(٣)</sup> » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤثّرُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجانيق الضعفاء يعني الدعاء<sup>(٤)</sup> » ومن قوله : « بيتٌ ليلتي كلها أتمنى فلات البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيّان وكوزان وطمّران<sup>(٥)</sup> » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاها<sup>(٦)</sup> .

ومن كبار وعظّاء العصر وقصّاصه الحسن البصرى ، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها<sup>(٧)</sup> » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد ، وهو القائل : « أرى داعي الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع<sup>(٨)</sup> » . ومن كبار القصّاص والوعظّاء الفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان يسجع في وعظه<sup>(٩)</sup> ، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً<sup>(١٠)</sup> » وهو الذي يقول في قصصه : « سلّ الأرض فقلّ من شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك . وحنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً<sup>(١١)</sup> » . ومن أشهر الوعظّاء وأنبههم واصل<sup>(١٢)</sup> بن عطاء رأس المعتزلة ، وكان أغزر خطباء عصره

- |                                      |                                          |
|--------------------------------------|------------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ٢/١١٣ .                   |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣١٧ .          | (٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .              |
| (٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ - ٣٤٠ .         | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .             |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٤ .          | (١١) نفس المصدر ١/٣٠٨ .                  |
| (٥) نفس المصدر ٣/١٦٤ والطمر :        | (١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل     |
| الثوب البالي .                       | لشهرستانى ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني |
| (٦) عيون الأخبار ٢/٣٤١ .             | وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤ .         |
| (٧) البيان والتبيين ١/٣٥٤ .          |                                          |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، وِرْوَى أَنَّهُ حَضَرَ يَوْمًا مَجْلِسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي إِمَارَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وَحَضَرَهُ مَعَهُ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ وَشَيْبَةُ بْنُ شَيْبَةَ وَالْفَضْلُ بْنُ عَيْمَى الرَّقَاشِي ، وَتَبَارَى الْأَرْبَعَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْخُطَابَةِ ، فَفَضَلَهُمْ بِمُخَاطَبَتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي جَانِبَ فِيهَا الرَّاءَ ، إِذْ كَانَ يُلْتَمَعُ فِيهَا لِشَخْصًا فَاحْشًا ، وَنَوَّهَ بِذَلِكَ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ طَوِيلًا ، قَبْلَ أَنْ يَفْسُدَ رَأْيُ وَاصِلٍ فِيهِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ (١) :

أَبَا حُدَيْفَةَ قَدْ أَوْتَيْتَ مُعْجِبَةً      فِي خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ  
وَقَوْلِهِ :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا      وَجَبَرُوا خُطْبًا نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ  
فَقَامَ مُرْتَجِلًا تَغْلَى بَدَاهَتُهُ      كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهْبِ (٢)  
وَجَانِبَ الرَّاءِ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ      قَبْلَ التَّصَفِّحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ  
وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَزْعِمَ كَمَا زَعَمَ بَشَارُ أَنْ وَاصِلًا أَلْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةَ عَلَى الْبَدِيهِ  
فَإِنْ مِنْ يَرْجِعُ إِلَيْهَا يَحْسُ أَثَرَ التَّرْوِيَةِ وَالتَّحْضِيرِ وَأَنَّهُ تَأْتَى لَهَا فِي أُنَاةٍ حَتَّى اسْتَقَتْ  
فِي نَسَقِهَا الْبَدِيْعُ ، وَهِيَ مِنْ خَيْرِ مَوَاعِظِ الْعَصْرِ وَأَجْمَلِهَا وَأَبْرَعِهَا ، وَقَدْ اسْتَهْلَهَا  
بِتَحْمِيدٍ وَتَمْجِيدٍ أَطْنَبَ فِيهِمَا إِطْنَابًا لَا نَعْرِفُهُ لِأَحَدٍ مِنْ رُصَفَائِهِ ، عَلَى هَذَا النَّمْطِ (٣) :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَدِيمِ بِلَا غَايَةٍ ، وَالْبَاقِي بِلَا نِهَايَةٍ ، الَّذِي عَمَلًا فِي دُنُوِّهِ ، وَدَنَا  
فِي عُلُوِّهِ ، فَلَا يَحْوِيهِ زَمَانٌ وَلَا يَحِيطُ بِهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَشُوْدُهُ (٤) حَفِظَ مَا خَلَقَ ،  
وَلَمْ يَخْلُقْهُ عَلَى مِثَالِ سَبْقٍ ، بَلْ أَنْشَأَهُ ابْتِدَاعًا ، وَعَدَلَهُ اصْطِنَاعًا ، فَأَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ  
خَلَقَهُ ، وَتَمَّ مَشِيئَتَهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى الْوَهَيْتِهِ ، فَسَبْحَانَهُ لَا مَعْقَبَ (٥) الْحِكْمَةِ  
وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ،  
وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلُهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَأَشْهَدُ  
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ إِلَهًا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ آلَاؤُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين

الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجهرة خطيب

العرب لأحمد زكي صفوت ٤٨٢/٢ .

(٢) القين : الحداد .

(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من

(٤) يشوده : يثقله .

(٥) لا معقب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيهه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام ، يُعصَى فيَحْلُم ، ويُدْعَى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

وواضح أن واصلاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطال في حمده . ويقبَس من صنيعه أخذ الكتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والخجابه لمعصيته ، وأحضّكم على ما يبدؤنيكم منه ويؤزلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبه في معاد ، ولا تلهينكم الحياه الدنيا بزيتها وخدعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من جبالها ، وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها ، إذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سمّاً » .

وواصل في هذه الفقرة يردّ ما كان يجرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبرفها الخلب وما يُطوى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدّ لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من أزور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالمرت بالمرصاد وعمّاً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كلُّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكانوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بحمليها (١)

(١) الحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحتهم بكلئكلها<sup>(١)</sup>، وعضت بهم بأنيابها، وعاضت منهم من السعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبساً.

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أظالوا فيه مستوعبين لقصاص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم، وما صب الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جلتب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة. ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً.

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللثغة في الرأ، فخلّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يظن لذلك لبيانه الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة. وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك رام إسقاط الرأ من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويقالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لسره والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له. ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة<sup>(٢)</sup> الأكتفاء ومفاوضة الإخوان.. وذكر ذلك أبو الطرّوق الضبيُّ فقال

علمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقُّ باطله<sup>(٣)</sup>،

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأ في جميع محاوراته آية بينة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(٣) البيان والتبيين ١٤/١ وما بعدها.

(١) الكلكل: الصدر.

(٢) مناقلة: مدافعة.

معاً ، وخرَّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى  
مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين  
منزلة المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصاري يصف أتباعه  
فيقول (١) :

له خلفَ شعبَ الصَّينِ في كلِّ ثُغرةٍ      إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر (٢)  
رجالٌ دعاةٌ لا يفلُّ عَزِيمُهُمْ      تهكُّمٌ جَبَّارٍ ولا كيدٌ ماكرٍ  
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ      وموضعٌ فُتياها وعلمُ التشاجر (٣)  
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُمْ      ولا الشُّدقُ من حَيِّيِّ هلالِ بنِ عامرٍ (٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوّه أيضاً بقدرتهم على الجدال والإقناع  
وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضى فيصور براءة واصل في هذا العلم  
الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند  
خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى  
أتباعه ، يقول :

تلقبُ بِالغَزَالِ واحدٌ عصره      فَمَنْ لِلتَيْمَى وَالقَيْبِلِ المُكَاثِرِ (٥)  
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رافِضٍ      وَآخَرَ مُرْجِيٍّ وَآخَرَ جَانِرِ (٦)  
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنكارٍ مَنْكَرٍ      وتحصين دين الله من كل كافرٍ  
يُصَيِّبونَ فَضْلَ القَوْلِ في كلِّ موطنٍ      كما طَبَّقَتْ في العِظَمِ مُدْيَةَ جازِرٍ  
وسِيَاهِمُ مَعْرُوفَةٌ في وجوههم      وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأباعِرِ  
وفي رِكْعَةٍ تَأْتِي على الليلِ كُلِّهِ      وظاهر قولٍ في مثالِ الضمائرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالغزال  
أنه كان يجلس في سوق الغزالين ليعرف المتعفات  
من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد  
ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ١/٢٥٠ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت  
حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدال في  
العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجةً واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقي وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية<sup>(١)</sup>. واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاوره واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبّيد بمجلس الحسن البصرى في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يفتصلون الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبّيد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل لينظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة<sup>(٢)</sup>، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبّيد، فحاوره في رأيه، وردّ عليه واصل ردّاً مفحماً مستخدماً بعض آي الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المثلة بين المنزلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يؤتاها إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها وأطرافها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) أمال المرتضى ١/١٦٥.

العربي «طابع دار المعارف» ص ٧٩.

لا يأتي عفواً، وإنما يأتي من تصفح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقّت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودقائقها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمّ فتحو الأبواب واسعة للأسلوب المولّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفتات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفتات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتهمل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لئرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين<sup>(١)</sup> ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرّت بنا، وفي خطابة الحسن البصري وغيّيلان<sup>(٢)</sup> الدمشقي، وإنما ألباهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ : ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوخ لون الطباقي في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواضعه عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .  
٣٠٦/١ وما بعدها .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقتهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يُسْتَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عَبَّيْدٍ ما البلاغة؟ فأجاب<sup>(١)</sup> :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن لإفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونقسي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصلاً الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب.»

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاوراة والمناظرة، ويؤثر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهديان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة»<sup>(٢)</sup> وكان شبيب بن شيبية يقول: «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت»<sup>(٣)</sup>. ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر العقد (٢) العقد الفريد ٢/٢٦١.

(٢) الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٣. (٣) البيان والتبيين ١/١١٢.

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعته . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

### الحسن (١) البصرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سبي ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادى القرى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدعجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن ينجح عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدرسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولاً الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والمثل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الدائمي ، ولا يترك نبأ من يتابعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة لإقبالاً منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

ويُكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى توسّع آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رؤاها الأولى ، فالجسرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدْرِيًّا ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي نلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمّتها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله<sup>(١)</sup> ، وتلتقى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك<sup>(٢)</sup> .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيّناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر) (٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب  
المصرية برقم ٥٢٢١ أدب . آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقبيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محمكك» (١) « ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص (٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت (٣) » وهو إنما يتعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج (٤) » . وكان يجمع إلى فصاحته حساً لغوياً دقيقاً ، وبما يصور ذلك ما يُروى عن رجل من بني مجاشع قال : « جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله (٥) » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الوريين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته (٦) .

وهو في وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حائثاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرممة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله (٧) :

« يا بن آدم بيعُ دنياك بآخرتك تربيهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تنبظهم به . الشواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

- |                                                                                                  |                                                 |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .                                                                      | (٤) نفس المصدر ١/١٦٢ .                          |
| (٢) الخصى : البيت من قصب ، وكان في البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً . | (٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .                          |
| (٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .                                                              | (٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .           |
| (٤) نفس المصدر ٢/٣٤٤ .                                                                           | (٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ . |

والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً راتحاً<sup>(١)</sup> لم يضع لَبِيْنَةً على لبنة ولا قصبه على قصبه . . ( لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة ) . يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرُكَ ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يا ابن آدم اذكرْ قوله : ( وكلَّ إنسان أزمانه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ) عدلَ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، دعوا ما يربيبكم إلى ما لا يربيبكم . لقد صحبت أقواماً<sup>(٢)</sup> ما كانت صحبتهم إلا قُرَّةَ العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدهم منكم فيما حرمَّ عليكم منها . . لو تكاشفتُم ما تدافنتُم<sup>(٣)</sup> ، تهاديتُم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِيناً . أعدُّوا الجواب فإنكم مستولون . . يا ابن آدم ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتبني ، ولكنه ما وقَّرفى القلوب وصدَّقته الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآي الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يربيبكم إلى ما لا يربيبكم » فى الحديث النبوى : « دع ما يربيبك إلى ما لا يربيبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَّ أن يحملنها وأشفقنَّ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ) ثم عقب عليها بقوله<sup>(٤)</sup> :

(١) يريد أنه كان يظن ويروح فى كسب عيشه الضرورى .  
 (٢) يريد صحابة الرسول .  
 (٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستقلتم المثل فى الجنائز .  
 (٤) أمال المرتضى ١/١٥٤ .

« إن قوماً غَدَّوْا في المطارف <sup>(١)</sup> العِثاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيِّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أزلوا دينهم وأخنوا برأذنيهم <sup>(٢)</sup> ووسعوا دورهم وضيَّعوا قبورهم . ألم ترهم قد جمدَ دوا الثياب وأخنوا المدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بجلدٍ بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكِظَّة <sup>(٣)</sup> تجشَّأ من البشِّم <sup>(٤)</sup> ، ثم قال يا جارية هاتي حاطوماً <sup>(٥)</sup> يهضم الطعام ، يا أحمق لا والله إن تهضم لإدينك أين جارك؟ أين يتيمك؟ أين مسكينك؟ أين ما أوصاك الله عزَّ وجل به؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلّموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه، غير منكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الخنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعنُف بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلِّعها البائرة وعودهم عن الآخرة وسلِّعها الراجحة ، ومن قوله <sup>(٦)</sup> :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قسداً ، وقدم فضلاً ، وجنَّها هذه الفضول حيث وجهها الله، وضَمَّوها حيث أمر الله؛ فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا، ففضَّحها، فلا والله ما وجد ذو لُبٍ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركتُ من صدَّ رهذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، ينجون مولاهم في فكاك رقابهم <sup>(٧)</sup> . . . يابن آدم إن كان لا يُغنيك

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .  
 (٢) برأذنيهم : دوابهم  
 (٣) الكِظَّة : الشبع .  
 (٤) البشِّم : الامتلاء .  
 (٥) الحاطوم : الماضوم المهضم .  
 (٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .  
 (٧) يريد تغليبهم رقابهم من شموات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنِيكَ ، وإن كان يُغْنِيكَ ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من العذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبتلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوه ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدري أيُّ مَرُّ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والحلم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسُوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه . »

وهو بلا ريب أكبر من ثبوتها في هذا العصر ذلك الأسلوب الموثق الذي تأثر به عبد الحميد ومَن خلفوه من الكتَّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزروعات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتفسيحات الدقيقة .